حكايتي

هدى ملحم

حلم كل طفلة منذ الصغر أن تكبر وتصبح لها مكانة في المجتمع، ومنذ صغري كنت أنا وصديقتي ننتظر أن نذهب إلى المدرسة كباقي أفراد أسرتينا.

وفي بداية كل عام جديد، تبدأ التجهيزات المدرسية في كل عائلة، ومن أهم تلك التجهيزات «المريول» (الزي الرسمي للمدرسة) الذي كانت الأمهات، قديماً، يقمن بشراء القماش وإعطائه للخيّاطة وأخذ القياسات من أجل تصميمه. وفي تلك الأيام كانت تغمرني السعادة الكبيرة، وكنت أنتظر بفارغ الصبر ارتداء «المريول»، فقد كان يحتاج تفصيله تقريباً إلى عشرة أيام، وبعد مرور تلك الأيام ذهبت أنا وأمي لرؤيته، حيث أصبح جاهزاً، حتى أرتديه، وعندما رأيته كنت سعيدة جداً، وأنتظر اليوم الذي سوف ارتدي فيه «المريول»، والحذاء، والشبرة البيضاء (ربطة تزين بها الشعر) بفارغ الصبر.

وبعد مرور أسبوع، أتى اليوم الأول، فقد استيقظت باكراً وارتديت «المريول» الجديد، حملت الحقيبة الصغيرة، وكانت أختي الكبيرة (التي تكبرني بست سنوات) تذهب إلى المدرسة نفسها، وفي اليوم الأول ذهبت معها إلى المدرسة التي لم تكن تبعد عن بيتنا كثيراً، وعندما قرع الجرس، ذهبت أختي إلى صفها وأنا ومن مثلي من طالبات الصف الأول انتظرنا معلمة لتأخذنا إلى الصف، الذي كان من البناء القديم الواسع. غادرت معلمتنا الصف، ومن ثم عادت بعد فترة قصيرة إلينا، لن أنسى تلك اللحظة ولن أنسى معلمتي وهي المعلمة «فوفو» عادت وفي يديها علبة صغيرة، لا نعرف ماذا تخبئ في داخلها، كانت تبتسم إلينا وطلبت من الطالبات المتواجدات في الصف الخروج إلى ملعب المدرسة، وتشكيل حلقة دائرية، وقيام كل طالبة منا بذكر اسمها لتضع يديها في العلبة الصغيرة، وتخرج قطعة من الشوكلاتة لكل طالبة تذكر اسمها وتبتسم لرؤيتنا. في تلك اللحظة، غمرتني السعادة بوجود معلمة لطيفة جعلتنا نفرح ونحب المدرسة من اليوم الأول لنا فيها، وما زلت أذكر مذاق قطعة الشوكلاتة اللذيذة من يد معلمتي «فوفو».

وبعد مرور أربع سنوات، أصبحت طالبة في الصف الخامس، وكانت تضاف إلى مواد المنهاج في هذه السنة مادة اللغة الانجليزية. في تلك المرحلة، كانت مشاعري مختلطة بين الخوف، والحب، والكره؛ كوني لا أعرف اللغة الإنجليزية، وتراءت لي بعض الأفكار أن هناك إمكانية كبيرة أن لا أفهمها؛

لكونها لغة أجنبية، والخوف من أن أكرهها؛ وذلك أن بعض أخوتي يكرهون تلك اللغة، والآخرين يحبونها، فكان هناك تردد كبير حول تلك المادة. ولكن حالفني الحظ أن علمتني معلمة لطيفة تدعى «هناء»، وهي من جعلتني أحب مادة اللغة الإنجليزية وأبدع فيها، وكذلك معظم طالبات صفي ممن أنهين التعليم الجامعي درسن اللغة الإنجليزية، ومنهن من أصبحت معلمة، أو مديرة، أو مشرفة ... إلخ.

في ظل هذه اللحظات، مرت بعض الذكريات الجميلة التي جعلتني آخذ العبرة منها، ذلك أنه في الصف التاسع جاءت معلمة جديدة لتدرسنا اللغة العربية، ومما أذكره ولن أنساه أول حصة للغة العربية في الصف التاسع.

دخلت علينا تلك المعلمة وشعرها مجعد غير مرتب لونه أسمر، وقبل أن تلقي التحية علينا قامت بضرب طالبة ضرباً لئيما وشدتها من شعرها. في تلك اللحظة أصابنا الذهول والخوف والصمت، لا نعرف ماذا نفعل سوى الصمت خوفاً من أن تقوم بضربنا مثل تلك الطالبة المسكينة التي كان ذنبها الوحيد هو وقوفها بجانب السبورة عند دخول المعلمة الجديدة.

وبعد مرور سنوات عديدة والانتهاء من المدرسة، ذهبت إلى الجامعة ومعظم طالبات صفي، كان هناك تردد بالنسبة لهن في اختيار التخصص، أما بالنسبة لي فقد كنت أحلم وأرغب في دراسة تخصص اللغة الإنجليزية، وذلك لأن طموحي من الصف الخامس أن أصبح معلمة لغة إنجليزية.

وبالفعل، درست اللغة الإنجليزية، وبعد ذلك تخرجت وبدأت المعاناة للحصول على الوظيفة. وبعد خمس سنوات من التخرج، جاءني خبر تعييني معلمة لغة إنجليزية، وبدأت أسترجع ذكرياتي مع معلمات اللواتي قمن بتدريسي وأحببتهن، واللواتي لم أحبهن، وكان ولا يزال هناك عهد على نفسي منذ بداياتي في تدريس اللغة الإنجليزية، وهو أن أجعل طالباتي يحببن اللغة الإنجليزية ويحببنني، وأن أكون المعلمة والصديقة لهن، فهذا العهد الذي يجعلني سعيدة بتدريسي اللغة الإنجليزية.

ومن بعض الذكريات التي لا أستطيع نسيانها، هو حبي لمعلمتي «فوفو»، وكان كثير من طالبات صفي يشعرن الشعور نفسه، حيث قامت العديد من زميلاتي بدراسة اللغة الإنجليزية، وقد كان يبلغ عدد طالبات صفي 35 طالبة، وأكثر من 15 طالبة درسن اللغة الإنجليزية، فمنهن من أصبح مثلي معلمة لغة إنجليزية، ومنهن أصبحت مديرة، ومشرفة أو اتجهت إلى وظيفة في مستشفى أو مركز أو مؤسسة، لذلك أعمل كل جهدي وأحاول أن أستخدم أساليب متنوعة في التدريس، كوني أدرس المرحلة الأساسية التي تحتاج إلى جهد كبير، لجعل الطالبات الصغيرات يحببن اللغة الإنجليزية، فهن بحاجة إلى حنان وحب. ومن الأساليب التي جعلتني أقوى وأستطيع أن أستغني عن أسلوب التلقين في التعليم، هو أسلوب الدراما التي درسته واستطعت إتقانه من خلال مركز القطان لبحث والتطوير التربوي/مؤسسة عبد المحسن القطان، وكان له الدور الأكبر في التنويع، وحصلت عليه من خلال المساقات وورش العمل التي لا تزال قائمة وتعطى للمعلمين والمعلمات في أنحاء الوطن. وفي النهاية لا بد أن قول كلمة «إذا المعلم أحب مهنته، يمكنه الإبداع والتميز على الرغم من جميع الأعباء التي تثقل كاهله ...».

مدرسة اليرموك/حلحول